ملامح تربية إسلامية في المنظور القرآني (دراسة في سورة الفاتحة)

Muh. syaifudin

magdakushananku@gmail.com

abstract

This article attempts to describe the content of Surah Al-Fatihah from an educational aspect.By using the method of analysis of the Qur'anic interpretation (tahlili), the author traces the interpretations of Al-Qur'a both classical and contemporary.

It is not an exaggeration to say that Allah is the educator of the universe with humans as the foremost beings who are affected by this project. In carrying out this mission, the Al-Qur'an is used as a medium as well as a means to take people step by step towards perfection. Al-Fatihah as the first chapter in the Al-Qur'an, also referred to as its mother, certainly cannot be separated from this great mission.

Starting from basmalah, the affirmation of the name Allah Ar-Rahman Ar-Rahim seems to be a guide that every educator must base all his actions in the name of compassion, as Allah SWT. However, compassion here must be balanced with reward and punishment (verse: 4).

The second stage to achieve success in education is high trust in educators. This is because the student will not be able to get the maximum result of knowledge if he has doubts about the teacher. Third, as the meaning of education is to walk the path to the goal, not to arrive at the destination instantaneously or to arrive at the destination in any way, then in verse 6, students are directed to walk the shirotol mustaqim, the straight path to the peak of happiness in the world and the hereafter. Finally, Surah Al-Fatihah is closed with a gesture to imitate the previous people. Successful people to imitate, perverted people to shun.

التوطئة

وليس من باب المغالاة أن نقول إن الله خلق العالم أجمع –وفي مقدمتهم بنو آدم– لتربيتهم إلى أحسن حال. وإذا نظرنا إلى خصائص التربية نرى أنها تتحقق في الرسالة الإلهية نحو الإنسان. ومن بينها الشمولية. ويعنى بها أن التربية تتناول جميع ما في الإنسان من الجوانب الشخصية ومراحل نموه. وما من شك أنها ما قام به سبحانه وتعالى. ولنقرأ قوله تعالى في سورة الحج على سبيل المثال : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ

مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا..)[1].

ومن بينها التدرج ويعنى به أن التربية عملية تدرجية يخطو بها المربي من خلال المراحل الهادفة. وهذا طبعا يتمثل في مهمة الله سبحانه وتعالى حيث قام بتربية الناس المولعين بشرب الخمر, وقد نصحهم في أول وهلة بقوله (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا)[2]، ويتدرج إرشاده تعالى بأن قال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ..)[3]، فلما عمر الإيمان قلوب المؤمنين واطمأنوا في مضارها نهى الله تعالى عنها محرما بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون)[4]،

أما الآيات التي تصرح بذكر التربية وهي قوله تعالى (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)[5]. ولله در الألوسي حيث فسر هذه الآية بأحسن تفسير ما نصه : الكاف في محل النصب على أنه نعتٌ لمصدر محذوف أي رحمةً مثلَ تربيتهما لي أو مثلَ رحمتهما لي على أن التربيةَ رحمةٌ ويجوز أن يكون لهما الرحمةُ والتربية معاً وقد ذُكر أحدُهما في أحد الجانبين والآخرُ كما يلوح به التعرّضُ لعنوان الربوبيةِ في مطلع الدعاء كأنه قيل : رب ارحمهما وربِّهما كما رحِماني وربّياني صَغِيرًا. ويجوز أن تكون الكافُ للتعليل أي لأجل تربيتهما لي كقوله تعالى : (واذكروه كَمَا هَدَاكُمْ) ولقد بالغ عز وجل في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفَع الإحسانَ

---

[1] سورة الحج : 5

[2] سورة البقرة : 219

[3] سورة النساء : 43

[4] سورة المائدة : 90

[5] سورة الإسراء : 24

إليهما بتوحيده سبحانه ونظمَهما في سلك القضاءِ بهما معاً ثم ضيّق الأمرَ في باب مراعاتهما حتى لم يرخِّصْ في أدنى كلمةٍ تُفْلت من المتضجر مع ما له من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ، وختمَها بأن جعل رحمتَه التي وسعت كلَّ شيء مُشْبَهةٌ بتربيتهما . وعن النبي عليه الصلاة والسلام : « رِضى الله في رضى الوالدين وسخطُه في سخطهما[6].

أشار الألوسي خلال تفسيره هذه الآية كون الله سبحانه وتعالى مقام المربي حيث أوصى عباده بالدعاء ليربي والديهم كما ربوهم صغارا. هناك قاسم مشترك بين الله سبحانه وتعالى والوالدين في كون كل منهما مربيا حقيقيا.

واستعمال لفظ التربية –أو ما اشتق منه– ورد أيضا في قصة موسى عليه السلام حيث قال سبحانه وتعالى حاكيا قول فرعون (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)[7]. وفسر هذه الآية أحسن تفسير الإمام طاهر ابن عاشور ما نصه : والاستفهام –يعنى قوله ألم نربك وليدا– تقريري وجعل التقرير على نفي التربية مع أن المقصود الإقرار بوقوع التربية مجاراة لحال موسى في نظر فرعون إذ رأى في هذا الكلام جرأة عليه لا تناسب حال من هو ممنون لأسرته بالتربية لأنها تقتضي المحبة والبر، فكأنه يرخي له العنان بتلقين أن يجحد أنه مربى فيهم حتى إذا أقر ولم ينكر كان الإقرار سالما من التعلل بخوف او ضغط، فهذا وجه تسليط الاستفهام التقريري على النفي في حين أن المقرر به ثابت. وهذا كما تقول للرجل الذي طال عهدك برؤيته: ألست فلانا، ومثله كثير[8].

---

[6] أبو الفضل محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 15، ص 57

[7] سورة الشعراء : 18

[8] محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، 1420هـ/2000م، الطبعة : الأولى، ج 19، ص 125

واضح أن هذه الآية تتكلم عن التربية بمعناها المألوف كما تدل أنها أمر محمود لا بد من جزائها بأمر محمود. ويتلخص من الآيتين السابقتين أن التربية والرحمة متداخلتان أو بعبارة أخرى أنهما وجهان لعملة واحدة لا يستغنى واحد عن الآخر. وإلى هذا الحد يمكننا أن نقول إن الرحمة بالعباد في حق الله سبحانه وتعالى تتحقق في تربيته لهم والعكس صحيح. ويسير هذا المعنى بالتالي في سائر الآيات القرآنية من الفاتحة إلى الناس. وفي هذا الصدد يحاول الكاتب أن يكشف عن أسرار سورة الفاتحة مركزا على جوانبها التربوية.

الجوانب التربوية في سورة الفاتحة

سورة الفاتحة أو السبع المثاني أو أم الكتاب هي أعظم سورة في القرآن الكريم، سنادا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته). وذلك لأنها افتتح بها المصحف في الكتابة، ولأنها تفتتح بها الصلاة في القراءة.

لسورة الفاتحة أسماء كثيرة عدها السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن خمسةً وعشرين اسمًا بين ألقاب وصفات جرت على ألسنة القراء من عهد السلف، ومنها : القرآن العظيم، وسورة الحمد، والوافية، والكافية[9]. وقد أجمع جمهور العلماء على أنها سبع آيات بلا خلاق، وقال عمرو بن عبيد ثمان وقال حسين الجعفي سته. وهذان شاذان، وإنما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها أو لا تعد[10].

وتعد السورة سورة مكية أُنزلت قبل هجرة الرسول من مكة، وهو قول أكثر العلماء، وكان ترتيبها في النزول خامسًا على قول بدر الدين الزركشي بعد سورة العلق وسورة القلم وسورة المزمل وسورة المدثر.

---

[9] جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1426، ج 1، ص 355

[10] الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية ج 1، ص 101

اشتملت السورة على أغراض عدة، وهي: حمد الله وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه، وتنزيهه عن جميع النقائص، وإثبات البعث والجزاء، وإفراده بالعبادة والاستعانة، والتوجه إليه بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، والتضرع إليه بتثبيتهم على الصراط المستقيم، والإخبار عن قصص الأمم السابقين، كما اشتملت السورة على الترغيب في الأعمال الصالحة. وذكَّرت بأساسيات الدين وهي شكر نعم الله في قوله (الحمد لله)، والاخلاص لله في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين)، والصحبة الصالحة في قوله (صراط الذين أنعمت عليهم). كما تذكر أسماء الله الحسنى وصفاته في قوله (الرحمن الرحيم)، والاستقامة في قوله (اهدنا الصراط المستقيم)، والآخرة في قوله (مالك يوم الدين)، بالإضافة لأهمية الدعاء في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين)[11].

وقبل الخوض في بيان مضامين سورة الفاتحة التربوية، فمن الأحسن سرد تعريف التربية الإسلامية.

معنى التربية الإسلامية

التربية في اللغة لها جذور لغوية ثلاثة :

االأول : رَبا يربو بمعنى زادَ ونما، فهي –بناء على هذا المعنى– النمو والزيادة في الشيء، كما قال تعالى: (وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله")[12]. وقال تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)[13]." وفي صيغة التعدية فكما قال تعالى (يمحق الله الربا ويربي الصدقات)[14].

والثاني: رَبى يربي على وزن خفى يخفي، فهي بمعنى التنشئة والرعاية، وعليه :

---

[11] انظر أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، 1946م، ج 1، ص 24

[12] سورة الروم : 39

[13] سورة الحج : 5

[14] سورة البقرة : 276

فمن يكُ سائلاً عني فإني بمكة منزلي وبها رَبِيْتُ[15]

الثالث: ربَّ يربُّ على وزن مدَّ يمدُّ بمعنى أصلحه، وتولى أمره، وساسه وقام عليه ورعاه. ورب ولده يربه ربا وربيه تربيبا وتَرِبَّةً عن اللحياني بمعنى ربّاه وفي الحديث (لك نعمة تربها) أي تحفظها وتراعيها. وتربيها كما يربي الرجل ولده. وتربيه وارتبه ورباه تربية على تحويل التضعيف وترباه على تحويل التضعيف –أيضا– أحسن القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفولية[16].

التربية الإسلامية اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للتربية الإسلامية له علاقة وطيدة بالمعنى اللغوي. فالمعنى اللغوي لكلمة التربية يدور حول المعاني التي تدل على النماء (التنمية) والتنشئة والرعاية والإصلاح، كما أن المرادفات التي استخدمها علماء السلف للدلالة على معنى التربية تدور أيضًا حول تنمية النفس وتنشئتها والقيام برعايتها، وتطهيرها من الدناءة وتزكيتها، والحرص على تعليمها وتأديبها، حتى يتحقق التكيف المطلوب، والتفاعل والتناغم الإيجابيين لجميع جوانبها المختلفة، مع ما حولها، ومن حولها من الكائنات والمكونات.

وإن الاختلاف في تحديد مفهوم التربية يُعد أمرًا مقبولاً – نسبيًّا – عند أصحاب الفلسفات والنظريات والأفكار التربوية البشرية،

- الدكتور عبد الرحمن النقيب أن المقصود بالتربية الإسلامية : النظام التربوي والتعليمي الذي يستهدف إيجاد إنسان القرآن والسُنة أخلاقًا وسلوكًا مهما كانت حرفته أو مهنته"[17].
- الدكتور عبد الرحمن النحلاوي، أن التربية الإسلامية هي التنظيم النفسي والاجتماعي الذي يؤدي إلى اعتناق الإسلام وتطبيقه كليا في حياة الفرد والجماعة[18].

---

[15] ابن منظور، لسان العرب، 304/14

[16] نفس المرجع، 399/1

[17] عبد الرحمن النقيب،ا لتربية الإسلامية المعاصرة في مواجهة النظام العالمي الجديد، ص17

- صالح هندي : أن التربية الإسلامية هي العملية المقصودة التي تستهدف المحافظة على فطرة الإنسان وإعداد شخصيته بجميع أبعادها منذ ولادته وحتى وفاته وفقًا لأحكام الإسلام وتوجيهاته[19].

وهنا يمكن القول بأن التعريفات السابقة تؤكد جميعًا على أن التربية الإسلامية نظامٌ تربويٌ شاملٌ يهتم بإعداد الإنسان الصالح إعدادًا متكاملاً دينيًا و دُنيويًا في ضوء مصادر الشريعة الإسلامية.

والقاسم المشترك بين التعاريف السالف الذكر للتربية الإسلامية هو السعي لإيجاد إنسان أحسن مما قبل وفق التعاليم الإسلامية التي ما هي إلا المنبثقة من القرآن والسنة. وعليه فما نكون مما بصدده من أهم المحاور التربوية، حيث ينبثق بحثنا من القرآن الكريم وعلى وجه الخصوص من أعظم السور فيها وهي سورة الفاتحة.

المضامين التربوية من خلال سورة الفاتحة

البسملة

ابتدأت السورة بالبسملة وتصمن معنى التربية العميقة. قال الإمام الطبري في المدلول التربوي لهذه الآية : إنّ الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه أدّب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، و تقدّم إليه في وصفه بها قبل جميع مهماته، وجعل ما أدّبه به من ذلك وعلمه إياه، منه لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلا يتبعونه عليها، فيه افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم.

---

[18] عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ط (2)، دمشق: دار الفكر(1403ه)، ص:21

[19] صالح ذياب الهندي، صورة الطفولة في التربية الإسلامية، دار الفكر، عمان، ص 21

الابتداء ببسم الله هو الأدب التربوي الذي أدّب الله به هذه الأمة. ولذلك ندب الشرع إلى البدء بذكر الله في كل فعل وفي كل قول. وبذلك تكون أفعال المسلم وأقواله عبادة. وهذا ما يتفق مع التصور الإسلامي عن الإلهية. فالله هو الموجود الحق الذي يستمد منه كل موجود وجوده. فباسمه يكون كل ابتداء، وباسمه تكون كل حركة، وباسمه يكون كل قول.

ابتدأ نزول القرآن بقوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)[20]، واسم الله يذكره المسلم عند كل فعل كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال. فقال تعالى: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)[21]،وقال تعالى: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)[22].

وفيما يلى تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من خلال أحاديثه الشريفة في أعمالهم اليومية،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى عن جابر رضي الله عنه في باب صفة إبليس وجنوده (إذا استنجح الليل أو كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئا). واضح من هذا الحديث الشريف مدى عنايته صلى الله عليه وسلم أمته حتى في أعمالهم اليومية البسيطة، من غلق الباب وإطفاء المصباح وما إلى ذلك كيف وجههم وإرشادهم إلى التعلق باسم الله تعالى. وهذا طبعا يدل على معنى التربية الإسلامية الحقيقية.

---

[20] سورة العلق : 1

[21] سورة هود : 41

[22] سورة النمل : 30

وقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن أبي سلمة وكانت يداه تطيش في الصحفة : (يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك). ولننظر مرة أخرى مدى اهتمامه صلى الله عليه وسلم أمته ولو كان غلاما وفي تافه الأمر وهو الأكل. أرشده لكى يتعود على قراءة البسملة، وهذا طبعا قمة التربية الإسلامية. أضف إلى ذلك ما يتعلق بتفاصيل الحياة. ومنها :

زفي الأضاحى قال صلى الله عليه وسلم: (من ذبح قبل أن يصلي فليذبح أخرى مكانها ومن لم يذبح فليذبح باسم الله). وعند دخول الخلاء قال صلى الله عليه وسلم : (ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول: بسم الله) وقال صلى الله عليه وسلم : إذا دخل المسلم الخلاء يقول: (بسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخُبَث والخبائث).

ولا يفوت الشارع أن يعلمنا بالتسمية في عباداتنا وقال صلى الله عليه وسلم : (لا وضوء لمن يذكر اسم الله عليه)

ومن الفوائد التربوية لبدء كل عمل بالتسمية أن المرء يزجره المعصية في القول والعمل لما يتناقض بين التسمية والمعصية.

إعلان الله سبحانه رب الرحمة

رغم اختلاف العلماء في إثبات البسملة من ضمن سورة الفاتحة وعدمه، إلا أنهم مجمعون على ذكرها مسطورة قبل الفاتحة. ويعنى ذلك أن البسملة بمثابة تعرف الله سبحانه وتعالى عباده أجمعين. فلننظر ما يتسم به سبحانه وتعالى وهو يتعرف عباده. ألا وهي صفة الرحمة. ثم لننظر إلى كثير من الناس من الملوك والأشراف والأمجاد بل من عوامهم. فهم يتعرفون غيرهم مظهرين علوهم ونفوذهم الاجتماعية والسياسية، ومن عوامهم فهم يدعون أنهم منتسبون إلى أولي قوة وبأس شديد. وما غرض هؤلاء وهؤلاء إلا تخويف الأخرين واستجلاب الاحترام من غيرهم. وكم

من هذا التناقض. فصاحب القدرة المطلقة يعرف نفسه بكل رحمة، وناقصها بل فاقدها يدعي التولية.

ثم إن ذكر الرحمة بعد البسملة يعني استجلاب الرحمة الإلهية في كل حركة يقوم بها المسلم وفي كل قول يقوله المسلم. إذ لولا رحمة الله بالناس ما عرفوا طريق الطاعة من طريق المعصية. و لولا رحمة الله الناس ما عرفوا كيف يعبدونه وما استطاعوا أن يفعلوا ذلك. علما بأن العبودية لله سبحانه وتعالى هي أسمى الدرجات للخلق. وذلك لأنه ما من خلق تحت أديم السماء إلا يتعبد لغيره طوعا أو كرها. وما أخسر من تعبد لغيره من الخلق الضعاف، وما أسعد من تعبد لمن له القدرة على الإطلاق.

ويعلمنا الله تعالى ويربينا على الرحمة وهي واحدة من أجل الخصال التي يتميز بها أهل القرآن عمن سواهم من الناس، وهي من الخصال التي يريد أن يرسخها القرآن في أهله المؤمنين به ترسيخا عميقا، فأين هذه التربية العظيمة من التربية البشرية تربية الظلم والقهر والعدوان.

قول الله سبحانه وتعالى (الحمد لله رب العالمين)

وكلمة الحمد والمدح على حد قول صاحب الكشاف أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول : حمدت الرجل على إنعامه ، وحمدته على حسبه وشجاعته . وأمّا الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال : أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ منّي ثلاثة ... يَدِي ولِسَانِي والضَّمِيرَ المحَجَّبَا
والحمد باللسان وحده ، فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام :
(الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لم يحمده). وإنما جعله رأس الشكر لأنّ ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها، أشيع لها وأدلّ على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن

كلّ خفي ويجلي كل مشتبه[23]، وعلى حد قول الإمام الألوسي فالحمد على المشهور هو الثناء باللسان على الجميل سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل[24].

ثم إن أسلوب الحمدلة في السورة الذي يأتي على صيغة الخبر والغيبة فأصله على ما أوضحه العلامة ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير النصب على المفعولية المطلقة على أنه بدل من فعله وتقدير الكلام نحمد حمداً لله، ومن شأن بلغاء العرب أنهم لا يعدلون عن الأصل إلا وهم يرمون إلى غرض عدلوا لأجله، والعدول عن النصب هنا إلى الرفع ليتأتي لهم الدلالة على الدوام والثبات بمصير الجملة اسمية، والدلالة على العموم المستفادة في المقام من أل الجنسية، والدلالة على الاهتمام المستفاد من التقديم. وليس واحد من هذه الثلاثة بممكن الاستفادة لو بقي المصدر منصوبا. إذ النصب يدل الفعل المقدر والمقدر كالملفوظ[25].

وبعبارة أخرى أن أصل الحمدلة هي قوله نحمدك حمدا. فلما تقيد الأسلوب بزمن معين وهو المستقبل أو الحال كما أفادته صيغة المضارع تم العدول إلى معنى الدوام والثبات والاستمرار وهو بصيغة الحمد لله رب العالمين. ومن الممكن تصور هذا البيان بأنه ينطق كل واحد بقول أحمد الله ماضيا وحالا ومستقبلا، فتتلخص إلى قول الحمد لله رب العالمين.

والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله[26]. ففي صحيح مسلم أنّ رسول الله قال : (إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها). ولنا أمثلة وأسوة من أشراف الناس كما ذكره القرآن. وقد قال الله تعالى ناصحا لنوح عليه السلام (فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) لمؤمنو ن: من الآية28, وقال إبراهيم عليه السلام (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) إبراهيم: من

---

[23] أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، الكشاف، ج 1، ص 4

[24] شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني، ج 1، ص 38

[25] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 157

[26] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 1، ص 17

الآية39 وقال سبحانه وتعالى في قصة داود و سليمان (وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) النمل: من الآية15, وقال سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) الإسراء:111. وقال أهل الجنة فرحين بما وجدوا من النعم (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) فاطر : 34. (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس : 10).

وورد في عدة من الأحاديث الشريفة ما يوضح ذلك. ومنها ما في سنن ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثهم أنّ عبدا من عباد الله قال يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فعضّلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء وقالا يا ربنا، إنّ عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله عز وجل –وهو أعلم بما قال عبدُه– ماذا قال عبدي؟ قالا يا رب إنه قد قال يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها).

عن عبد الرحمن بن سابط ، قال : أبطت عائشة رضي الله عنها ذات ليلة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بطأ بك ؟ » قالت : سمعت رجلا يقرأ ، ما سمعت رجلا أحسن قراءة منه ، فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم يسمع صوته ، فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة ، فقال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك.

عن أبي أيوب الأنصاري قال : قال رجل عند النبي صلى الله عليه و سلم الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فقال النبي صلى الله عليه و سلم من صاحب الكلمة فسكت ورأى أنه هجم من النبي صلى الله عليه و سلم على شيء كرهه فقال من هو فلم يقل الا صوابا فقال رجل أنا أرجو بها الخير فقال والذي نفسي بيده رأيت ثلاثة عشر ملكا يبتدرون أيهم يرفعها إلى الله عز و جل.

وفي التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ما يروي عطش العاطشين عن الفرق بين الحمد والشكر والمدح وقال : الحمد أعم من الشكر لأن الشكر لا يكون إلا جزاء على نعمه والحمد يكون جزاء كالشكر ويكون ثناء ابتداء كما أن الشكر قد يكون أعم من الحمد لأن الحمد باللسان والشكر باللسان والقلب والجوارح فإذا فهمت عموم الحمد علمت أن قولك الحمد لله يقتضي الثناء عليه لما هو من الجلال والعظمة والواحدانية والعزة والإفضال والعلم والمقدرة والحكمة وغير ذلك من الصفات ويتضمن معاني أسمائه الحسنى التسعة والتسعين، ويقتضي شكره والثناء عليه بكل نعمة أعطى ورحمة أولى جميع خلقه في الآخرة والأولى. فيا لها من كلمة جمعت ما تضيق عنه المجلدات واتفق دون عدة عقول الخلائق، ويكفيك أن الله جعلها أول كتابه وآخر دعوى أهل الجنة، الشكر باللسان هو الثناء على المنعم والتحدث بالنعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التحدث بالنعم شكر، والشكر بالجوارح هو العمل بطاعة الله وترك معاصيه، والشكر بالقلب هو معرفة مقدار النعمة والعلم بأنها من الله وحده، والعلم بأنها تفضل لا باستحقاق العبد واعلم أن النعم التي يجب الشكر عليها لا تحصى ولكنها تنحصر في ثلاثة أقسام نعم دنيوية كالعافية والمال ونعم دينية كالعلم والتقوى ونعم أخروية وهي جزاؤه بالثواب الكثير على العمل القليل في العمر القصير والناس في الشكر على مقامين منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه خاصة، ومنهم من يشكر الله عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم والشكر على ثلاث درجات فدرجات العوام الشكر على النعم ودرجة الخواص الشكر على النعم والنقم ،وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص أن يغيب عن النعمة بمشاهدة المنعم قال رجل لإبراهيم بن أدهم: الفقراء إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا. ومن فضيلة الشكر أنه من صفات الحق ومن صفات الخلق فإن من أسماء الله الشاكر والشكور.

ومن الجانب التربوي أشار سبحانه وتعالى من خلال قوله الحمد لله رب العالمين إلى التعبير عما في الضمير والصراحة بما في الصدور من فضله وإنعامه الوافرة لفظا ونطقا. وطبعا هذا نوع من التربية الإسلامية التي روجها الشارع وحث المسلمين على العمل بها. حيث إنهم لما نالوا خيرا من الآخر فلا يبخلوا أن يعبروا المدح والشكر باللسان عليه. فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ –' عَلَى الْمِنْبَرِ (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ)[27] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (مَنْ أُبْلِيَ بَلاَءً فَذَكَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ). وقوله صلى الله عليه وسلم من أبلي بلاء أي من أُنعم عليه بنعمه. عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ : جَزَاكَ اللهُ خَيْراً ، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ). وقال عليه الصلاة والسلام: (من أعطي شيئاً فوجد عنده ما يقابل –الإحسان بالإحسان– فليجز به، ومن لم يجد فليثنِ به؛ فإن أثنى به فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور).

ومن باب الشكر إلى الأخرين رد الإحسان إلى غير المسلمين. قيل لـ سعيد بن جبير : (المجوسي يوليني خيراً أشكره؟ قال: نعم". ولو كان كافراً)، وفي رواية عن أبي سنان ، قال : قلت لسعيد بن جبير : المجوسي يوليني من نفسه ويسلم علي أفأرد عليه ؟ فقال سعيد : سألت ابن عباس عن نحو ذلك ، فقال : « لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه.

ثم الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة نوعان : عام، وهو أن تصفه بالجود والكرم والبر والإحسان وسعة العطاء ونحو ذلك. وخاص، وهو تتحدث بنعمه عليك وتخبر بوصولها إليك (وأما بنعمة ربك فحدث).

---

[27] البهقي، الجامع لشعب الإيمان، ص 4419

والتحديث المأمور به هنا فيه قولان:

1- أن تذكر وتعدد (أنعم الله علي بكذا وكذا...) ولذلك قال بعض المفسرين اشكر ما ذكره من النعم عليك في هذه السورة من جبرك يتيماً وهدايتك بعد الضلال وإغنائك بعد العيلة.

2- أن تستعملها في طاعته. فالتحدث بالنعمة من الثناء على الله، فتثني على الله بالأسماء المناسبة لمقام الشكر(المنان-الكريم-ذو الفضل العظيم - الله واسع - عطاؤه كثير)[28].

وخلاصة ما سبق بيانه أن الإسلام أدبنا وربانا أن نقدر فضائل الأخرين سواء ننتفع بها أم لا. وهذا التقدير لا يكفي بأن نضمره في أنفسنا أو نتحدث عنه وراء أصحاب الفضائل. بل لا بد أن نعبره بألسنتنا وأفواهنا أمام المحمودين. مع مراعاة ألا ننزلق في جحر المداحين المنهي عن فعلهم، كما ورد في حديث عن عطاء بن أبي رباح : أن رجلا كان يمدح رجلا عند ابن عمر ، فجعل ابن عمر يحثو (1) التراب نحو وجهه بأصابعه ، وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا في أفواههم التراب[29].والمراد بالمداحين هنا هم الذين اتَّخَذوا مدْح الناس عادة وجعلوه صِنَاعة يَسْتأكِلُون به الممدوح فأما مَن مَدَح على الفعل الحسَن والأمْر المحمود تَرْغيبا في أمثاله وتَحْريضا للناس على الاقْتِداء به في أشباهه فليس بمدّاح وإن كَان قد صار مادحاً بما تكلم به من جميل القول[30].

الجانب التربوي في مفهوم لفظ رب العالمين

ورد في لسان العرب لابن منظور لفظ الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم قال ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل وإذا أطلق على غيره أضيف فقيل رب كذا قال وقد جاء في الشعر مطلقا على غير الله تعالى[31] وليس بالكثير ولم يذكر في غير الشعر[32]. ولعل أهم ما في هذا المصطلح هو كونه مشتقا من التربية. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ رجلًا زار أخًا له في قرية فأرصد الله

---

[28] سلسلة أعمال القلوب المؤلف : الشيخ محمد صالح المنجد ص 5

[29] أبو بكر بن أبي شيبة، الأدب، 45/1

[30] أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الأثر، المكتبة العلمية، بيروت، 1979م، 485/1

[31] محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج1، ص 400

[32] ابن منظور، نفس المرجع، ج1، ص 399

تعالى على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته. وقوله: "تَرُبُّها" أي: تقوم بها، وتسعى في صلاحها[33]، وفي النهاية تحفظها وتراعيها وتربيها كما يربي الرجل ولده . يقال : رب فلان ولده يربه ربا وربته ورباه كله بمعنى واحد[34]،

وعلى وجه التدقيق قال العلامة ابن عاشور حيث رجح معنى المربي للفظ "الرب" على الملك والسيد، ما مفاده : ويجوز أن يكون من ربه بمعنى ملَكَه. والأظهر أنه مشتق من ربَّه بمعنى رباه وساسه ، لا من ربه بمعنى ملكه لأن الأول الأنسب بالمقام هنا إذ المراد أنه مدبر الخلائق وسائس أمورها ومبلغها غاية كمالها ، ولأنه لو حمل على معنى المالك لكان قوله تعالى بعد ذلك (ملك يوم الدين) كالتأكيد والتأكيد خلاف الأصل ولا داعي إليه هنا. والتربية تبليغ الشيء إلى كماله تدريجاً[35]. والله سبحانه وتعالى يقوم على تربية الخلق ، فهو مُربٍ نفوس العابدين بالتأييد ومربٍ قلوب الطالبين بالتسديد ، ومربٍ أرواح العارفين بالتوحيد ، وهو مربٍ الأشباح بوجود النِّعم ، ومربٍ الأرواح بشهود الكرم. ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمور عباده من ربيت العديم أربه؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته ، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته ، ومصلح أمور الواجدين بقديم عنايته ، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعطائه ، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقائه ، وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقائه ، قال قائلهم :

ما دام عزُّك مسعوداً طوالعه ... فلا أبالي أعاش الناس أم فقدوا[36].

وعليه فإن معنى قوله تعالى (رب العالمين) هو أنّ الله متصرف لتربية وإصلاح جميع الخلائق، وأنه لم يخلق هذا الكون ثم تركه هملا، بل يتصرف فيه بالإصلاح والتربية والرعاية. وهذه التربية والرعاية قائمة في كل وقت وفي كل حين. وبذلك يطمئن الإنسان إلى رعاية الله الدائمة والتي لا تنقطع أبدا ولا تغيب.

---

[33] محمد منير بن عبده أغا النقلي الدمشقي الأزهرى، الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، دار ابن كثير دمشق- بيروت، ص 128

[34] أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية – بيروت ، 1399هـ - 1979م، ج2، ص 450

[35] محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – 1997 م، ج 1، ص 166

[36] عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الاشارات، ج 1، ص 3

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر، فهو الذي استدعاهم جميعا الى الوجود. ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته وليس بما يستحقون. فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط، والمطر ينزل على من يعبدون الله ومن يعبدون أوثانا من دون الله. والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها.

وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية لله هي في الدنيا لخلقه جميعا[37].

ويليها قوله (الرحمن الرحيم)، وفيه أسرار عظيمة وحكم عميقة. واسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقة الخاطر وانعطافه نحو حي بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه ودفع الضر عنه وإعانته على المشاق. فهي من الكيفيات النفسانية لأنها انفعال، ولتلك الكيفية اندفاع يحمل صاحبها على أفعال وجودية بقدر استطاعته وعلى قدرة قوة انفعاله. فأصل الرحمة من مقولة الانفعال وآثارها من مقولة الفعل، فإذا وصف موصوف بالرحمة كان معناه حصول الانفعال المذكور في نفسه، وإذا أخبر عنه بأنه رحم غيره فهو على معنى صدر عنه أثر من آثار الرحمة[38]. ويشمل معنى الرحمة هو الآخر التخليص من أنواع الآفات ، وعن إيصال الخيرات إلى أصحاب الحاجات[39] .

ووجه المناسبة بين الآية وسباقها هو أن الله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه. وهذه رحمة، والله قابل للتوبة، وهذه رحمة. إذن ففي الفاتحة تأتي { الرحمن الرحيم } بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه ، فهو يمهل العاصي ويفتح ابواب التوبة لكل من يلجأ اليه . وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه[40].

هكذا ينبغي أن يكون المربي، لا يفرق بين أحد من تلاميذه ولا يميز بين أذكيائهم من جهلائهم، ولا يصدر من المربي الألبتة المحاباة فضلا من أجل المال أو الجاه. وهذا الوصف من الرحمة للتلاميد أو المربين لا يعنى إطلاقهم وسلوكياتهم بدون المراقبة ما يعاكس معنى التربية. والرحمة في المنظور التربوي وجه من وجهين في عملة واحدة يكاملها العقوبة بميزانها المناسب فلا إفراط فيها

---

[37] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج1، ص 10

[38] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 167

[39] فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج 1، ص 4

[40] الشعراوي، المرجع السابق، ج 1، ص 10

ولا تفريط. وأوضح ذلك أيما تناسب الآية التالية من سورة الفاتحة في قوله تعالى : مالك يوم الدين).

قال العلامة ابن عاشور في تفسير هذه الآية ما نصه : إتباع الأوصاف الثلاثة المتقدمة بهذا ليس لمجرد سرد صفات من صفاته تعالى، بل هو مما أثارته الأوصاف المتقدمة، فإنه لما وصف تعالى بأنه رب العالمين الرحمن الرحيم وكان ذلك مفيدا لما قدمناه من التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين في سائر أكوانهم، ثم التنبيه بأن تصرفه تعالى في الأكوان والأطوار تصرف رحمة عند المعتبر، وكان من جملة تلك التصرفات تصرفات الأمر والنهي المعبر عنها بالتشريع الراجع إلى حفظ مصالح الناس عامة وخاصة، وكان معظم تلك التشريعات مشتملا على إخراج المكلف عن داعية الهوى الذي يلائمه اتباعه وفي نزعه عنه إرغام له ومشقة، خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة في فاتحة الكتاب مخففا عن المكلفين عبء العصيان لما أمروا به ومثيرا لأطماعهم في العفو عن استخفافهم بذلك وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكاليف.

لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحكم في يوم الجزاء (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) [غافر: من الآية17] لأن الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة[41].

وعليه فإن الآية الكريمة تعتبر خير وسيلة لتربية الإنسان وغرس الإيمان العميق فى قلبه ، لأنه إذا آمن بأن هناك يوما يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسئ ، وأن زمام الحكم فى ذلك اليوم لله الواحد القهار ، فإنه فى هذه الحالة سيقوى عنده خلق المراقبة لخالقه ، ويجتهد فى السير على الطريق المستقيم[42] (الوسيط : سيد طنطاوي : 5/1).

وبعد أن تم بيان حالة رب العالمين وهو مربيهم أحسن تربية من إظهار الرحمة ووضع العدالة في المعاشرة مع المخلوقين بأن يجازى الثواب والجنة لمن أطاعه منهم ويعاقب العاصين، أردف ما يجب أن يفعله الخلق تجاه ربهم سبحانه وتعالى. وقال إياك نعبد وإياك نستعين : و (نَعْبُدُ) : معناه :

---

[41] ابن عاشور، المرجع السابق، ج1 ص 171

[42] محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ج 1، ص 5

نقيم الشرع والأوامر مع تذلُّل واستكانة[43]، ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع ، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس[44]. وفي التربية إشارة إلى أن العبد يتحتم عليهم أن يتذللوا أمام الله سبحانه وتعالى لما له من كمال الربوبية وقمة الرحمة، فلا يتصور أن يلتفت الخلق إلى غيره. وعليه تأتي العبارة بخصوصية العبادة والإقرار الصريح بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) يدل على أن العبادة أيضاً مما لا يتم ولا يستتب له إلا بمعونة منه وتوفيق[45]. ولما كانت وظيفة الإنسان في الدنيا تعمير الأرض بحكم مقامهم خليفة فيها فلا بد من إعداد وسائل عدة ليتيسروا في القيام بها. وما كان المستعان على وجه الإطلاق إلا من الله سبحانه وتعالى. وهو الذي خلقهم ويهيئ لهم سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، وهو الذي قدر لهم هذه الوظيفة العظيمة. ويستفاد من هذا المعنى أن التلاميذ قبل كل شيئ أن يعتمدوا على أساتذهم ويستندوا إليهم لكي ينجحوا في المستقبل.

ثم بين سبحانه وتعالى نوع المعونة التي يستحسن أن يدعو الإنسان بها ربه. ألا وهي الهداية. وقد قال تعالى :

(اهدنا الصراط المستقيم).

ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم : (اهدنا الصراط المستقيم). والهداية نوعان : هداية دلالة وهداية معونة . هداية الدلالة هي للناس جميعا، وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله. والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أي دلهم على طريق الخير وبينه لهم. فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد.[46].

---

[43] أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن،

[44] البيضاوي، ج 1، ص 7.

[45] البيضاوي، المرجع السابق، ج 1، ص 8

[46] الشعراوي، ج 1، ص 40

ولتحصيل الهداية طريقان : أحدهما : طلب المعرفة بالدليل والحجة، والثاني : بتصفية الباطن والرياضة. أما طرق الاستدلال فإنها غير متناهية لأنه لا ذرة من ذرات العالم الأعلى والأسفل إلا وتلك الذرة شاهدة بكمال إلهيته ، وبعزة عزته ، وبجلال صمديته[47]. وهذان اثنان يقتضيان إلى التربية والتعليم حيث تقتضي الطريقة الأولى إلى المثابرة في التعلم والإكثار من جمع المعارف ليتوصل الإنسان إلى دليل مقنع وحجة بالغة. أما الثانية فتقتضي إلى الترويض الذي يعتبر من أهم أنواع التربية حيث يسلك الإنسان هدفا ما تدريجيا، مرحلة بعد مرحلة. كما أن طلب الهداية اعتراف بالاحتياج إلى العلم[48]،

ووصف الصراط بالمستقيم اعتراف بأن من العلم ما هو حق ومنه ما هو مشوب بشبه وغلط، ومن اعترف بهذين الأمرين فقد أعد نفسه لاتباع أحسنهما، وعن الضلالات التي تعتري العلوم الصحيحة والشرائع الحقة فتذهب بفائدتها وتنزل صاحبها إلى دركة أقل مما وقف عنده الجاهل البسيط.

وقوله الصراط : من السراط» : الجادّة ، من سرط الشيء إذا ابتلعه ، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه ، كما سمي : لقماً ، لأنه يلتقمهم. وفي اللسان : سرط الطعام والشيء بالكسر سرطا وسرطانا بلعه، والسروط الذي يسترط كل شيء يبتلعه. وعلى وجه التوضيح قال الشعراوي في تفسيره ما نصه : ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم . لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا في منهجه الطريق المستقيم، وهو أقصر الطرق الى تحقيق الغاية. فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم. ولذلك إذا كنت تقصد مكانا فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولكنه مستقيم تماما.

ولا تحسب أن البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير. بل باعوجاج صغير جدا ولكنه ينتهي الى بُعد كبير.

ويكفي أن تراقب قضبان السكة الحديد. عندما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذي كان يسلكه فهو لا ينحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات. أي أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما

---

[47] فخر الدين الرازي، المرجع السابق، ج 1، ص 7

[48] الرازي، نفس المرجع،

مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا. بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذي مشيت فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات. إذن فأي انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا. ولذلك فإن الدعاء : (اهدنا الصراط المستقيم) أي الطريق الذي ليس فيه إعوجاج ولو بضعة ملليمترات. الطريق الذي ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم. لذلك فإن الانسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه الى أقصر الطرق للوصول الى الغاية. وما هي الغاية؟ انها الجنة والنعيم في الآخرة. ولذلك نقول يا رب اهدنا وأعنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا الي الجنة دون أن يكون فيه أي اعوجاج يبعدنا عنها[49].

هذا هو التربية بمعنى الكلمة حيث يتربي الطالب تربية صحيحية تدريجية وتنحو منحى الصواب. وإذا كان الهدف من المسيرة من أهم الأمور فإن تعيين الطريق أهم منها. وقد يكون الهدف واضحا ولكن الطريق إليه معوجا فيسلك خطرا عظيما.وهذه الآية ترشدنا المنهج التربوي الصحيح من أجل الحصول إلى الهدف الصحيح.

وقوله تعالى (صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) بدل من الصراط المستقيم ، وهو في حكم تكرير العامل ، كأنه قيل : اهدنا الصراط المستقيم ، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم،[50]

وإنما جاء نظم الآية بأسلوب الإبدال أو البيان لفائدتين: الأولى : أن المقصود من الطلب ابتداء هو كون المهدى إليه وسيلة للنجاة واضحة سمحة سهلة، وأما كونها سبيل الذين أنعم الله عليهم فأمر زائد لبيان فضله. الفائدة الثانية: ما في أسلوب الإبدال من الإجمال المعقب بالتفصيل ليتمكن معنى الصراط للمطلوب فضل تمكن في نفوس المؤمنين الذين لقنوا هذا الدعاء فيكون له من الفائدة مثل ما للتوكيد المعنوي، وأيضا لما في هذا الأسلوب من تقرير حقيقة هذا الصراط وتحقيق مفهومه في نفوسهم فيحصل مفهومه مرتين فيحصل له من الفائدة ما يحصل بالتوكيد اللفظي واعتبار البدلية مساو لاعتباره عطف بيان لا مزية لأحدهما على الآخر خلافا لمن حاول التفاضل بينهما، وعند التحقيق أن عطف البيان اسم لنوع من البدل وهو البدل المطابق وهو

---

[49] تفسير الشعراوي، ج 1، ص 31

[50] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 9

الذي لم يفصح أحد من النحاة على تفرقة معنوية بينهما ولا شاهدا يعين المصير إلى أحدهما دون الآخر.[51].

ثم إن في اختيار وصف الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعمت عليهم دون بقية أوصافه تمهيدا لبساط الإجابة فإن الكريم إذا قلت له أعطني كما أعطيت فلانا كان ذلك أنشط لكرمه، كما قرره الشيخ الجد قدس الله سره في قوله صلى الله عليه وسلم: "كما صليت على إبراهيم" ، فيقول السائلون: اهدنا الصراط المستقيم الصراط الذي هديت إليه عبيد نعمك مع ما في ذلك من التعريض بطلب أن يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى بأولئك المنعم عليهم، وتهمما بالاقتداء بهم في الأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات، قال تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [الممتحنة: 6]،

فالمراد من المنعم عليهم الذين أفيضت عليهم النعم الكاملة. ولا تخفى تمام المناسبة بين المنعم عليهم وبين المهديين حينئذ فيكون في إبدال (صِرَاطَ الَّذِينَ) من (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) معنى بديع وهو أن الهداية نعمة وأن المنعم عليهم بالنعمة الكاملة قد هدوا إلى الصراط المستقيم. والذين أنعم الله عليهم هم خيار الأمم السابقة من الرسل والأنبياء الذين حصلت لهم النعمة الكاملة. وتوصل العلامة ابن عاشور إلى ما قاله : فسواء فسرنا المنعم عليهم بالأنبياء أو بأفضل أتباعهم أو بالمسلمين السابقين فالمقصد الهداية إلى صراط كامل ويكون هذا الدعاء محمولا في كل زمان على ما يناسب طرق الهداية التي سبقت زمانه والتي لم يبلغ إلى نهايتها[52].

وبعبارة أخرى على ما قاله الإمام محمد سيد طنطاوي في قوله تعالى (صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) ما نصه : ولم يقل صراط الأنبياء أو الصالحين، ليدل على أن الدين فى ذاته نعمة عظيمة. ويكفى للدلالة على عظمتها إسنادها إليه – تعالى – فى قوله : (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) لأن المراد بالإنعام هنا – على الراجح – الإنعام الدينى . فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق فتمسكوا به ، وعرفوا الخير فعملوا به[53].

---

[51] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 189

[52] ابن عاشور، المرجع السابق، ج1، ص 190-191

[53] محمد سيد طنطاوي، المرجع السابق، ج1، ص 9

وعلى وجه الإيجاز الشافي قال العلامة الألوسي أن الصراط المستقيم بتنوع إلى عام للناس وخاص بخواصهم والكل منهما صراط المنعم عليهم على اختلاف درجاتهم[54].

وإضافة الصراط إلى المنعم عليهم لمعنيين :أولهما : هو إبراز نفسية المحب المخلص، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه، وتفعم قلبه، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة إلا أن يبين الطريق، بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون. وثانيهما : أن من خواطر المؤمل فى نعيم ربه أن يكون تمام أنسه فى رفقة من الناس صالحين ، وصحب منهم محسنين)[55].

وقوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يعنى أن وصف الذين أنعم الله عليهم بأنهم غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ التعوذ مما عرض لأمم منعمين بالهداية إلى صراط الخير بحسب زمانهم بدعوة الرسل إلى الحق فتقلدوها ثم طرأ عليهم سوء الفهم فيها فغيروها وما رعوها حق رعايتها، والتبرؤ من أن يكونوا مثلهم في بطر النعمة وسوء الامتثال وفساد التأويل وتغليب الشهوات الدنيوية على إقامة الدين حتى حق عليهم غضب الله تعالى، وكذا التبرؤ من حال الذين هدوا إلى صراط مستقيم فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة، فأصبحوا من الضالين بعد الهداية إذ أساءوا صفة العلم بالنعمة فانقلبت هدايتهم ضلالا.

والظاهر أنهم لم يحق عليهم غضب الله قبل الإسلام لأنهم ضلوا عن غير تعمد فلم يسبق غضب الله عليهم قديما واليهود من جملة الفريق الأول، والنصارى من جملة الفريق الثاني كما يعلم من الاطلاع على تاريخ ظهور الدينين فيهم. وليس يلزم اختصاص أول الوصفين باليهود والثاني بالنصارى فإن في الأمم أمثالهم وهذا الوجه في التفسير هو الذي يستقيم معه مقام الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم ولو كان المراد دين اليهودية ودين النصرانية لكان الدعاء تحصيلا للحاصل فإن الإسلام جاء ناسخا لهما.

ويشمل المغضوب عليهم والضالون فرق الكفر والفسوق والعصيان، فالمغضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد أو عن تأويل بعيد جدا، والضالون جنس

---

[54] الإمام الألوسي، روح المعاني، ج 1، ص 72

[55] محمد سيد طنطاوي، المرجع السابق، ج1، ص 9

للفرق التي أخطأت الدين عن سوء فهم وقلة إصغاء؛ وكلا الفريقين مذموم لأننا مأمورون باتباع سبيل الحق وصرف الجهد إلى إصابته، واليهود من الفريق الأول والنصارى من الفريق الثاني.

والغضب المتعلق بالمغضوب عليهم هو غضب الله. وحقيقة الغضب المعروف في الناس أنه كيفية تعرض للنفس يتبعها حركة الروح إلى الخارج وثورانها فتطلب الانتقام، فالكيفية سبب لطلب الانتقام وطلب الانتقام سبب لحصول الانتقام. والظاهر أن إرادة الانتقام ليست من لوازم ماهية الغضب بحيث لا تنفك عنه ولكنها قد تكون من آثاره، وأن الغضب هو كيفية للنفس تعرض من حصول ما لا يلائمها فتترتب عليه كراهية الفعل المغضوب منه وكراهية فاعله، ويلازمه الإعراض عن المغضوب عليه ومعاملته بالعنف وبقطع الإحسان وبالأذى وقد يفضي ذلك إلى طلب الانتقام منه فيختلف الحد الذي يثور عند الغضب في النفس باختلاف مراتب احتمال النفوس للمنافرات واختلاف العادات في اعتبار أسبابه. فلعل الذين جعلوا إرادة الانتقام لازمة للغضب بنوا على القوانين العربية.

وإذ كانت حقيقة الغضب يستحيل اتصاف الله تعالى بها وإسنادها إليه على الحقيقة للأدلة القطعية الدالة على تنزيه الله تعالى عن التغيرات الذاتية والعرضية، فقد وجب على المؤمن صرف إسناد الغضب إلى الله عن معناه الحقيقي، وطريقة أهل العلم والنظر في هذا الصرف أن يصرف اللفظ إلى المجاز بعلاقة اللزوم أو إلى الكناية باللفظ عن لازم معناه فالذي يكون صفة لله من معنى الغضب هو لازمه، أعني العقاب والإهانة يوم الجزاء واللعنة أي الإبعاد عن أهل الدين والصلاح في الدنيا أو هو من قبيل التمثيلية[56].

وقدم المغضوب عليهم على الضالين لأن معنى المغضوب عليهم كالضد لمعنى المنعم عليهم ، ولأن المقابلة بينهما أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين. فكان جديرًا بأن يوضع فى مقابلته قبل الضالين[57].

هذه الآية تتناسب ونظرية التربية الإسلامية حيث تطبق منهج التأسي بالأسوة الحسنة. ورد في القرآن الكريم الأمر بتأسي سيدنا إبراهيم عليه السلام لما له من السيرة الذاتية السامية سواء في

---

[56] ابن عاشور، المرجع السابق، ج 1، ص 193-194

[57] محمد سيد طنطاوي، المرجع السابق، ج1، ص 10

الأمور العقائدة أو الأمور الاسرية والاجتماعية، وقد قال سبحانه وتعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) سورة الممتحنة : 4. كما ورد في غير ما موضع أن الله أمرنا أن نسير في الأرض وننظر عاقبة الأمم السابقة فمنهم من أعلى درجاتهم ومنهم عاقبهم لما ارتكبوا من المعاصي.

وبجانب الاعتبار بأحوال السابقين، فإن الآية لها إرشاد تربوي في اختيار الزملاء والأصدقاء وهو المآنسة مع الأخيار والتحذر من الأشرار لما في ذلك من التأثير في أخلاق التلاميذ. قد يكون التلاميذ سبقهم عزم قوي في التعلم والتأدب فطال عليهم الزمن وتأثروا بأصدقائهم الأشرار ثم أصبحوا من المنحرفين عن الهدف الأول الحسن.

الخلاصة

ومما سبق بيانه توصلنا إلى نتائج مهمة كما يلي :

1. إن سورة الفاتحة مليئة بالإشارات التربوية سواء من خلال لفظ من ألفاظها، آية من آياتها أو سياق بينها.
2. ظهرت مناهج تربوية في السورة بدأ من إعلان الرحمانية للخلق ليكون المربون أول ما أظهروه هي صفة الرحمة بدون تمييز بين واحد من غيره التي يوازنها على وجه الكمال الجزاء بأن يجازي بالثواب فاعل الخير ويعاقب فاعل السوء. ثم ترتقي إلى المرحلة التالية وهي إخلاص العبودية لله وحده، إشارة إلى إعطاء الثقة بالكلية نحو المربي ثم الاستعانة من أجل إنجاح العمل، وتنتهي إلى لزوم التأسي بالأخيار والتحذر بالأشرار.

المراجع

1. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الأثر، المكتبة العلمية، بيروت، 1979م،
2. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية
3. أبو الفضل محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت،

4. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي – بيروت
5. أبو بكر بن أبي شيبة، كتاب الأدب، دار البشائر الإسلامية،
6. أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن،
7. أحمد بن الحسين البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، مكتبة الرشد، 2003،
8. أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، 1946م،
9. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1426،
10. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، 2003م
11. صالح ذياب الهندي، صورة الطفولة في التربية الإسلامية، دار الفكر، عمان،
12. عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دمشق: دار الفكر(1403هـ)،
13. عبد الرحمن النقيب،ا لتربية الإسلامية المعاصرة في مواجهة النظام العالمي الجديد،
14. عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الاشارات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
15. فخر الدين محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000م.
16. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – 1997 م،
17. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، 1420هـ/2000م،
18. محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت،

19. محمد سيد طنطاوي ولجنة من العلماء، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، مصر، 1992م
20. محمد صالح المنجد، سلسلة أعمال القلوب، المكتبة الشاملة
21. محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، مصر، 1991م
22. محمد منير بن عبده أغا النقلي الدمشقي الأزهرى، الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، دار ابن كثير دمشق- بيروت،
23. ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي،